تعليق مسلم على محاضرة بنديكت السادس عشر: "الإيمان والعقل والجامعة: ذكريات وتأملات"

عــــــارف علي النايض*
ترجمة: نجيب الحصادي

في الثاني عشر من سبتمبر، عام 2006، ألقى بابا الكنيسة المسيحية الكاثوليكية، بنديكت السادس عشر، محاضرة في جامعة ريجنزبرج، عنوانها "الإيمان والعقل والجامعة: ذكريات وتأملات". وقد سببت محاضرة البابا صدعا عميقا ومؤلما في علاقة الكاثوليكيين بالمسلمين على الصعد الدبلوماسية، والسياسية، والشعبية. التغطية الإعلامية المسطحة للمحاضرة، وردود الأفعال الشعبية الإنفعالية لهذه التغطية، حالت إلى حد كبير دون اعتبار محتوى المحاضرة ونقدها بالشكل اللازم. الغاية من هذه المقالة إجراء دراسة معمقة لهذه المحاضرة.

يحدوني أمل في أن يمهد الاعتبار المتوازن والمنصف للمحاضرة لحوار لاهوتي فلسفي بين العلماء المسلمين والعلماء الكاثوليك، بمن فيهم البابا الكاثوليكي نفسه. الراهن أن الحاجة إلى مثل هذا الحوار ماسة لإصلاح الاختلالات التي

* عارف علي النايض، درس الهندسة (بكالوريوس) وفلسفة العلم (ماجستير) وعلم التأويل (دكتوراه) في جامعتي آيوا، وجويلف. كما درس أيضا، بوصفه طالبا خصوصيا، في جامعة تورنتو والجامعة البابوية الجرجورية. أستاذ سابق في المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية (روما)، والمعهد الدولي للفكر والحضارة الإسلاميين (ماليزيا). يعمل في الوقت الراهن مستشارا في The Cambridge Interfaith Program في كلية اللاهوت بكيمبردج، وهو المدير التنفيذي لشركة (IBM, Agathon System Ltd Nortel and CRN Partner for Libya).

طرأت على علاقة الكاثوليك بالمسلمين، ولإشفاء جراحات جديدة عمقت آلام عالم ممزق وموجع أصلا.

من اللازم أن نقدر أن بنديكت السادس عشر، إلى حد ما على أقل تقدير، أستاذ سابق يعود إلى جامعته الأثيرة كي يتحدث، مرة أخرى، بوصفه أستاذا. وبطبيعة الحال، فإن خطاب المرء، والطريقة التي يستقبل بها، إنما يرتهنان إلى حد كبير بالسياق الذي يلقي فيه هذا الخطاب. الخطابات المختلفة إنما ترتبط بمعايير قيمية مختلفة، ما يلزم الحكم عليها وفق المعايير التي تناسبها.

اعتبار المحاضرة محاضرة لجوزيف راتزنجر بوصفه بنديكت السادس عشر، بابا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وقائد الكاثوليكيين في العالم بأسره، شيء، واعتبارها محاضرة لجوزيف راتزنجر بوصفه أستاذ لاهوت ألماني، شيء آخر. النغمة النوستالجية التي استبينت في فقرات المحاضرة الاستهلالية والإشارة إلى محاضرات كانت ألقيت في خمسينيات القرن الفائت، إنما تبين أن راتزنجر يتحدث إلى حد بوصفه أستاذ لاهوت ألماني. على ذلك، بحسبان أن راتزنجر قد "تخلق من جديد" في صورة البابا بنديكت السادس عشر، فإنه من الطبيعي تماما، رغم النوستالجيا الآسرة، أن يستحيل على متلقيي المحاضرة تعليق الدور الكنسي الذي يقوم به راتزنجر. وكما أشار الفيلسوف الروماني شيشرون والفيلسوف البريطاني برادلي، فإن واجبات المرء ترتهن إلى حد كبير بدوره في الحياة.

في عالم متوحش يعج بحروب وصراعات، تدور رحى كثير منها بين المسيحيين والمسلمين (أيا كانت الرايات والتسميات التي تنضوون تحتها)، يلزم أن يتحدث ويتصرف القادة الدينيون في كل الأديان على نحو مسؤول. عمق المسؤولية إنما يطرد مع أهمية المنصب الديني الذي يتولاه المتحدث. ثمة العديد من أساتذة الجامعات الذين يصدرون مختلف الأحكام المسيئة للإسلام ومعتنقيه. غير أنه غالبا ما يتم تجاهلهم، وعلى نحو محق.

من المهم أيضا للمسلمين، التزاما بروح الإنصاف التي يؤثرها الإسلام، أن يقدروا ويعززوا كل ملمح إيجابي اشتملت عليه المحاضرة. من ضمن هذه الملامح الخطاب المهم، الذي ورد لسوء الحظ في نهاية المحاضرة، والذي يؤكد أهمية تعميق وبسط مفهوم العقل الغربي بحيث يشمل ويستوعب الإسهام الذي يمكن للدين الموحى به أن يشارك به.

يستهل بنديكت محاضرته، بطريق أنيقة بما يكفي، بتذكر عهده في جامعة بون عام 1959، حيث "كنا نتقابل قبل وبعد تلقي الدروس في حجرات الأساتذة. كانت هناك نقاشات حية تدور مع مؤرخين، وفلاسفة، وعلماء في فقه اللغة التاريخي، وبطبيعة الحال مع أساتذة علم اللاهوت." يستبان أن بنديكت ينزع إلى النقاشات الفلسفية، واللغوية، واللاهوتية. إنه يخوض في كل هذه المستويات،

وكما يتضح من محاضرته، فإنه يستطيع أن يفيد من نقاش أكثر وجاهة مع علماء إسلام جادين.

الحال أنه لا تساورنا أدنى شكوك في أنه معني بالإسلام وأنه يحمله محمل الجد. غير أن المواد والحلقات الدراسية التي يشارك فيها تبدو خاصة ومن النوع الضيق. ولأنه عالم كاثوليكي يحترم التخصص الدقيق، يبدو أنه يركن بشكل مكثف إلى أعمال مستشرقين كاثوليك، بعض منهم لا يتعاطف بوجه خاص مع الإسلام.

في نهاية العام الفائت، كرس بنديكت الملتقى السنوي، الذي اعتاد عقده مع طلابه السابقين الذين كانوا يحضرون رسائل الدكتوراه على يديه، لدراسة مفهوم الله في الإسلام. نحن لا نعلم سوى القليل عما دار في هذا الملتقى، غير أننا نستطيع أن نتعرف على شذرات مما حدث من تقريرين، متعارضين أحيانا، أعدهما اثنان من المساهمين الأساسيين. موضوع الملتقى ومحتواه متعلقان بشكل مباشر بمحاضرة بنديكت السادس عشر التي ألقاها في روزنبرج، ولو نشرت أعمال حلقة النقاش "الخاصة" تلك، لتعمق فهمنا لموقف بنديكت السادس عشر الحقيقي من الإسلام.

لقد كان أجدر لبنديكت أن يستمع إلى علماء اللاهوت الإسلامي أنفسهم فيما يتعلق بمعتقداتهم بخصوص الله. غير أنه آثر أن يستضيف تلاميذه، كي يستمعوا ويناقشوا عالمي لاهوت كاثوليك متخصصين في علاقات المسيحيين بالمسلمين: اليسوعي المسيحي الألماني كريستيان ترول، واليسوعي المصري سمير خليل سمير. صحيح أن كليهما مسيحي يحظى بشهرة في مجال الدراسات الإسلامية؛ غير أنهما ينزعان إلى إثارة الشكوك فيما يسمى بـ "الإسلام التقليدي". ترول مقتنع أساسا أنه يتوجب الإصلاح من شأن الإسلام، وهو خبير ومناصر نشط "للإصلاح الحداثي". سمير أقل احتفاء بالإسلام، أكان تقليديا أم "إصلاحيا"، وغالبا ما يتخذ مواقف عدائية منه. كلاهما، صحبة مستشارين آخرين مقربين لبنديكت، يعاني بشكل واضح من حالة "رهاب_إسلامي" قد تعين على تفسير توجه محاضرة بنديكت.

من المهم أن نشير إلى أن بعض مستشاري بنديكت المقربين في المسائل الإسلامية يتخذون مواقف عدائية من الإسلام ويخشون من انتشاره لأنه يرون أن هذا الدين عنيف بطبعه. ثمة العديد من الخبراء الكاثوليك أو العلمانيين الأكثر حرصا من أن يروعوا قلب البابا من رهاب ــ إسلامي، غير أنه تم بوجه عام تهميشهم، أو تجاهلهم كلية، فيما تقاعد بعض آخر منهم. من هؤلاء الأسقف الموقر ميشيل فتزجيرالد، الذي أحيل إلى مناصب أقل أهمية، وإن ظلت محترمة. ضم "المستشارية البابوية للحوار بين الأديان" إلى "المستشارية البابوية للثقافة"،

وحالة التفاقم المستمرة التي يعاني منها "المعهد البابوي للدراسة العربية والإسلامية"، إنما يجعلان البابا يحصل دوما على استشارته بخصوص الإسلام من أقل علماء الكاثوليك تعاطفا مع هذا الدين.

من المهم إذن أن يبذل علماء الإسلام جهودهم لإجراء حوارات فكرية ولاهوتية مع بنديكت السادس، بحيث لا يستقي رؤاه عن الإسلام عبر مصفاة مستشرقين كاثوليك مصابين برهاب_إسلامي. أيضا من المهم لبابا الكاثوليك أن يوسع الحلقة التي يختار منها مستشاريه، وأن يحذر من الرؤى الضيقة والمغرضة. يتوجب عليه أيضا أن يحذر من الثقة في المزاعم الإثنية الصرفة التي يقول بها بعض العلماء الكاثوليك العرب. في أحيان كثيرة، بعض أعضاء الأقليات التي تعيش في ثقافة أوسع هم الأقل دراية بثراء هذه الثقافة، وغالبا ما يعانون من مشاعر الانزعاج والخوف من القضاء عليهم. ثمة متخصصون عرب في الدراسات الكاثوليكية_الإسلامية يذهبون مذاهب مشكوك في أمرها في الإسلام والمسلمين، فيما تحمل آراؤهم الرهاب_إسلامية محمل الجد لمجرد أنهم عرب.

من منحى آخر، لدى بعض المسيحيين العرب، كاثوليك وغير كاثوليك، فهم معمق وتقدير كبير للإسلام والمسلمين، وبمقدورهم أن يسدوا للبابا نصائح مجزية. في وسع شخصيات موقرة ومنصفة مثل الأسقف ميشيل صباح والمطران جورج خضر أن يمنحوا بنديكت السادس عشر فهما معمقا للإسلام والمسلمين. هناك أيضا مستشرقون كاثوليك من غير العرب يستطيعون أن يؤمّنوا له عونا مفيدا في المسائل الإسلامية. من ضمن هؤلاء، أذكر موريس بورمانس، ميشيل لاجارد، إتيان رينو، وتومس ميشيل.

في أزمنة الحروب والصراعات، ينزع البشر إلى الثقة في آراء من يدفعهم إلى خشية أعدائهم ويعينهم على حشد طاقاتهم ضد هؤلاء الأعداء. غير أنه لا يعين بنديكت السادس عشر، كما لا يعين عالما موجعا، أن يقول واحد ممن يثق فيهم في مسائل الإسلام أشياء من قبيل:

"يريد بنديكت أمورا أكثر أساسية: ليس المهم هو اللاهوت، أقله ليس في هذه المرحلة من مراحل التاريخ؛ المهم هو حقيقة أن الإسلام الدين الأكثر نموا، وأنه يغدو تدريجيا خطرا يهدد الغرب والعالم. مكمن الخطر ليس في الإسلام بوجه عام، بل في رؤية بعينها في الإسلام لا تصرح إطلاقا بمناوءة العنف بل تولد العنف والتعصب."[1]

---

[1] When Civilizations Meet: How Joseph Ratzinger Sees Islam Written for and published by "Asia News." by Samir Khalil Samir, S.J. www.chiesa, Roma, September 25, 2006. http://www.chiesa.espressonline.it/dettaglio.jsp?id=53826&eng=y

أو، يقول، وهذا أسوأ:

"يتعرض الغرب ثانية للحصار. إنه يتعرض له بشكل مزدوج. ذلك أنه فضلا عن الهجمات الإرهابية، هناك شكل جديد من أشكال الغزو: هجرة مصاحبة بخصوبة عالية. دعونا نأمل، تأسيا بمثال الأب المقدس الشجاع في هذه الأزمنة الصعبة، أن يكون هناك حوار موضوعه مذاهب المسيحية والإسلام الحقيقية."[1]

هذه رؤى غاية في الخطورة، وهي لا تورث سوى المزيد من الحروب والصراعات. إنها الطرف المقابل والصورة المنعكسة لآراء الإرهابيين الزاعمي الإسلام.

ينوه بنديكت السادس عشر بأهمية البحث والنقاش حول عقلانية الإيمان، وأهمية أنه حتى في مثل هذا البحث والنقاش، يتعين أن نذهب إلى حد اعتبار الارتيابية المتطرفة والخوض فيها. "حتى في مواجهة مثل هذه الارتيابية المتطرفة، يظل من الضروري والعقلاني أن تثار مسألة الله عبر استخدام العقل، والقيام بذلك في سياق موروث الإيمان المسيحي: لقد كان هذا، ضمن الجامعة ككل، أمرا مسلما به دون جدل."

التسليم بأهمية مثل هذا البحث والنقاش إنما يشكل ذات أساس مجال الدراسات الإسلامية المكثف والمعمق الذي يسمى "علم الكلام". الحال أن الكثير من أعمال علماء الكلام تبدأ باعتبار مكثف لموقف المرتابين والبحث عن مبررات تعزز الإيمان الديني. لقد لاحظ كل علماء الكلام العظام حقيقة أن النقاش والحجاج والخلاف مع الآخرين أمور لا تستقيم إلا تأسيسا على عقلانية بشرية مشتركة.

بعد استهلاله المنصف إلى حد، يركن بنديكت فجأة إلى تركة جد مقلقة:

"لقد ذكرت بكل ذلك في فترة متأخرة حين اطلعت على منشور البروفيسور ثيودور خوري (من جامعة مونستر) لجزء من حوار – ربما جرى عام 1391 في الثكنات العسكرية الشتوية على مقربة من أنقرة – بين الإمبراطور (البيزنطي) العالم مانويل الثاني باليولوغوس، ومثقف فارسي حول موضوع المسيحية والإسلام، والحقيقة المتضمنة في كل منهما."

لا يتضح كيف "ذكر" حوار باليولوغوس البابا "بكل ذلك". لقد كان بودي أن أعتقد أنه ذكره بقيمة النقاش العقلاني، المؤسس على بشرية مشتركة، وبحقيقة أن

---

[1] 7. "Is Dialogue with Islam Possible? Some Reflections on Pope Benedict XVI's Address at the University of Regensburg" by Joseph Fessio, S.J., Ignatius Insight, September 18, 2006 http://www.ignatiusinsight.com/features2006/jfessio_reflections_sept06.asp

مسيحيا ومسلما كانا يجريان حوارا عقلانيا حتى أثناء الحصار. الحال أن استهلال بنديكت السادس عشر بحالة "حصار" إنما يبعث مشهد حصار القسطنطينية، بكل تداعياته الرمزية:

"لعل الإمبراطور نفسه هو الذي سجل ذلك الحوار خلال حصار القسطنطينية بين عامي 1394 و1402؛ ولعل هذا يفسر علة التركيز على تفاصيل حججه، دون اهتمام لافت بحجج محاوره الفارسي. يتسع الحوار بحيث يتطرق إلى البنى العقائدية في الإنجيل والقرآن، غير أنه يتمحور خصوصا حول صورة الله والإنسان، ناكصا حال الضرورة إلى العلائق القائمة بين ما كان يسمى بـ "الشرائع الثلاث": العهد القديم والعهد الجديد والقرآن. ليس بودي في هذه المحاضرة سوى مناقشة أمر واحد ــ كان هامشيا نسبة إلى مجمل الحوار؛ إنه سياق "الإيمان والعقل"، الذي أجده مثيرا ويمكن توظيفه نقطة بدء لتأملاتي في هذه المسألة."

الغريب أن بنديكت ينتقي أمرا يسلّم "بهامشيته" من حوار وسيط يكتنفه الغموض، دوّن في لحظة تاريخية استثنائية وموتورة، كي يعثر على "نقطة بدء" لتأملاته في "العقل والإيمان". بعد ذلك، ومن بين كل أجزاء كتاب الإمبراطور، يؤثر البابا التركيز على الجزء المتعلق بالحرب المقدسة أو الجهاد:

"في المحادثة السابعة (من الجدل) التي حررها البروفسور خوري، يتطرق الإمبراطور إلى موضوع الحرب المقدسة. من المؤكد أن الإمبراطور كان يعرف الآية القرآنية (2:256) التي تقول "لا إكراه في الدين". وفق رأي الخبراء، هذه إحدى السور القرآنية المبكرة، حين لم يكن لمحمد حول ولا قوة وكان واقعا تحت طائلة التهديد. وبطبيعة الحال، فقد كان الإمبراطور يعرف التعاليم التي تطورت لاحقا ورصدها القرآن فيما يتعلق بالحرب المقدسة."

من المثير أن بنديكت، بالركون إلى سلطة "خبراء" مجهولي الهوية، ينكر الحكم القرآني البين والقيمي، والذي يقر "لا إكراه في الدين"، عبر الزعم بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يتبن هذا الحكم إلا في عهد الهوان. وعوضا عن الاحتفاء بهذا الحكم، وتحدي المسلمين بأن يسموا إليه، ينكر البابا مصدرا إسلاميا مهما للعقلانية والسلام بأن يعتبره موقفا إسلاميا متكلفا لم يتم تبنيه إلا بسبب حالات ضعف مؤقتة.

الحال أنه لم يحدث إطلاقا عبر تاريخ التشريع الإسلامي إجازة إرغام الناس على دين لم يكونوا يدينون به. لقد كانت هذه الآية الحاسمة أساسا للتسامح الذي جسده المسلمون عيانا إزاء المسيحيين واليهود الذين عاشوا بين ظهرانيهم. خطر جدا إذن أن ينكر البابا آية قرآنية تشكل في واقع الأمر ضمانا تشريعيا وتاريخيا.

فضلا عن ذلك، فإن الزعم بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان يغير بطريقة نزوية مبادئ وتعاليم تشريعية، وقفا على حال ضعفه وقوته، ليس سوى صدى لرؤى متغرضة ظلت تظهر المرة تلو الأخرى على السطح في الخطابة المسيحية والغربية ضد الإسلام. لقد كان بمقدور نصيحة أكثر حكمة وإنصافا أن تربأ ببنديكت عن تبني مثل هذه المواقف المغرضة.

ولا ريب أن صورة النبي الانتهازي، التي يثيرها بنديكت السادس عشر على نحو عابر، موجعة ومسيئة للمسلمين. ماذا كان له أن يشعر لو أن المسلمين قالوا إن الكنيسة المسيحية لم تبد تسامحا إزاء المسلمين واليهود إلا بعد أن فقدت سلطتها في أوربا، وأن هذا التسامح أقرته دول علمانية ولم تضمنه الكنيسة، وإن زعمت الكنيسة بشكل انتهازي خلاف ذلك. من المرجح أن يثير هذا القول مواجع وإساءات أحسسنا بها نحن المسلمين حين زعم أن نبينا انتهازي لا يدعو إلى شيء حال هوانه، إلا كي يدعو إلى خلافه حال سطوته.

بعد ذلك، يضيف بنديكت السادس عشر قوله: "ودون خوض في التفاصيل، هذا ما يشكل الفرق في التعامل مع "أهل الكتاب" و"الكفار"..."

مرة أخرى، ينكر بنديكت مصدرا إسلاميا آخر للتسامح مع المسيحيين واليهود. لقد ميز الإسلام دوما بين "أهل الكتاب" (المسيحيين واليهود)، والوثنيين، حيث ضمن دوما لأهل الكتاب الذين يعيشون في مجتمعات إسلامية حق العبادة في سلام تأسيسا على هذا التمييز الحاسم. من المهم أن نلحظ أن بعض خطابات الكره التي تبناها إرهابيون يزعمون الإسلام قد حاولت تقويض التمييز بين المسيحية والوثنية (بوصف المسيحيين "عبدة الصليب") بغية إزالة الحصانة التشريعية التي تحظى بها المسيحية واليهودية في ظل التشريع الإسلامي. يبدو أن بنديكت يضمّن أن مثل هذه التمييزات ليست أساسية، وأنها لا تسهم إلا في التعتيم على روح الإسلام المعادية للتسامح.

بعد ذلك، يقتبس بنديكت السادس عشر أحد أكثر فقرات خطاب الإمبراطور مدعاة للقلق:

"... يوجه الإمبراطور إلى محاوره بأسلوب فظ مروع، وعلى نحو أدهشنا جميعا، السؤال الأساسي حول العلاقة بين الدين والعنف بوجه عام؛ قائلا: "أرني ما جديد محمد؛ إنك لن تجد سوى الشرير وغير الإنساني، من قبيل أمره بنشر الإيمان الذي يبشر به بحد السيف."

التراجيدي أن بنديكت، بإيقاظه نص الكره هذا من سباته التاريخي، إنما يفشل في النأي بنفسه عن رأي المؤلف الأصلي. حين يقوم شخص بإشارة غير مبررة لنص يكتنفه الغموض يعبر عن أشياء بغيضة، يلزمه أخلاقيا أن يفسر لماذا أشار إليه، قدر ما يلزمه الرد عليه، وإنكار البغض المعبر عنه فيه. خلافا لذلك، لنا أن

نفترض أن الشخص الذي يشير إلى النص المسيء يعنيه تماما، بل ويشارك في تبني رؤيته.

الزعم بأنه لم يكن هناك قصد للإساءة، وأن المسلمين لم يفهموا النص، إنما يجعل الأمور أكثر سوءا. هذا هو السبب الذي جعل الكثير من المسلمين يعتبرون "شبه الاعتذار" الذي قدمه بنديكت غير مناسب. كل التصريحات التي صدرت، حتى عن الفاتيكان، بما فيها خطاب بنديكت السادس عشر نفسه، إنما تأسف لحقيقة أن المسلمين أساءوا فهم محاضرة البابا واستجابوا بشكل سيء لها.

إن هذا الأسلوب إنما يتهم المسلمين بعوز الفهم والغلو في الاستجابة؛ وعوضا عن أن يعترف بالإساءة التي سببها، فإنه ينحو باللائمة على المساء إليهم لكونهم أخطأوا في فهم الإساءة! ولسوء الحظ، اعتبر الكثير من المسيحيين الخلص رفض المسلمين "لشبه الاعتذار" وردود أفعال المسلمين العاطفية لما قيل في حق نبيهم (صلى الله عليه وسلم) دليلا على صحة رأي البابا وموقفه الشجاع.

يضيف بنديكت:

"وبعد أن عبر الإمبراطور عن نفسه بقوة، يشرح بالتفصيل الأسباب التي تجعل من نشر الإيمان بحد السيف مسلكا تعوزه العقلانية. إن العنف لا يتسق بحال مع طبيعة الله، ولا مع طبيعة الروح؛ "فالله لا يحب سفك الدماء"، يقول الإمبراطور، "والتصرف غير العقلاني مُناقض لطبيعة الله". إن الإيمان ينبع من الروح لا الجسد. بيد أن الذين يرغبون في نشر الإيمان، "يحتاجون إلى قدرة على الفصاحة، والتأمل العقلي، دون عنف أو تهديد ... فمن أجل إقناع روح عاقلة، لا يحتاج المرء إلى ذراع قوية، أو سلاح من أي نوع، كما لا يحتاج إلى تهديد حياة أي إنسان..."

لو رجعنا إلى أي تفسير للقرآن جدير بالثقة كي نبحث عن معنى الآية "لا إكراه في الدين"، سوف نجد تفاسير تشبه إلى حد كبير ما يقره الإمبراطور بخصوص كون القلب أو الروح منزل الإيمان. في كل رسائل علماء الكلام الإسلاميين جزء يخصص للحديث عن الإيمان، وثمة إجماع على أنه يكمن في القلب أو الروح، وأنه لا إكراه جسدي يمكن أن يؤثر فيه.

نلحظ أيضا أن بنديكت السادس عشر كان لعدة سنين "ولي الإيمان" في الكنسية الكاثولوكية. غير أن "ولي الإيمان" ليس سوى صيغة حديثة لمحاكم التفتيش، التي يندر احترامها لقداسة القلب البشري في مسائل الإيمان. المؤسي أن الكنيسة، خصوصا في أسبانيا، استخدمت ضد المسلمين واليهود أساليب تعذيب واعتداءات جسدية لتنصير المسلمين واليهود، وإكراههم على دين غير دينهم. الراهن أنه لم يحدث إطلاقا أن قامت محاكم التفتيش بالعمل بنصيحة الإمبراطور التي تقول إنه "من أجل إقناع روح عاقلة، لا يحتاج المرء إلى ذراع قوية، أو

سلاح من أي نوع، كما لا يحتاج إلى تهديد حياة أي إنسان." يبدو أنه بمقدورنا جميعا أن نفيد من هذه النصيحة.

إن القرآن يلزم المسلمين بأن يدعوا إلى طريق ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن. ليس هناك في الإسلام ما يبرر تعذيب البشر كي يدينوا بغير دينهم. في أندونيسيا وماليزيا من المسلمين ما يفوق عددهم في البلدان العربية مجتمعة. غير أنه لم يدخل إلى أي منهما جيش عسكري واحد. فكيف انتشر الإسلام فيهما؟

على ذلك، لن نكون صادقين بل سذجا لو قلنا إنه لم يقم جيش إسلامي بغزو أي أرض. بيد أن فتح أرض يمكن أن يعبد فيها الله بحرية لا يعني إرغام أهلها على الإيمان "بحد السيف". آية ذلك أنه نادرا ما ترجمت غزوات المسلمين إلى إكراه في الدين. البينة على هذا بينة: فلقد هيمن المسلمون على أراض تعيش فيها أقليات مسيحية. فكم مسلم أو يهودي بقي في أسبانيا بعد أن استعادها الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا؟ أكثر من ذلك أن المسلمين، بوصفهم مهاجرين، لم يتمكنوا من دخول أوربا إلا بعد قيام دول علمانية متعددة الثقافة في بلدانها. أكان لهذا أن يحدث لو كان الأمر بيد الكنيسة الكاثوليكية؟ الحال أن بنديكت السادس عشر اشتهر هو نفسه برفض طلب تركيا أن تصبح جزءا من أوربا لمجرد كونها تفتقد المؤهلات الدينية والثقافية المناسبة.

الراهن أن العنف الذي مارسته الكنيسة الكاثوليكية، أو قامت بدعمه، يتواصل حتى الأزمنة الحديثة عبر دعم الغزو الاستعماري الأوربي لبقية العالم. الحملات التبشيرية، خصوصا اليسوعية، ترافقت يدا بيد مع المستعمرين في الأمريكتين، وأفريقيا، وآسيا. في موطني ليبيا، كانت الجيوش وفرق الموت الفاشية الإيطالية تحظى بمباركة السلطات الكاثوليكية المحلية في المربع الكاتدرائي قبل أن تقوم بالبحث عن رجال المقاومة الليبية للقضاء عليهم. حدث هذا في عهد قريب، قرب ثلاثينات القرن الفائت. الجنود الإثيوبيون الذين جندهم الفاشست على جبهة الجيوش الإيطالية كان يحملون صلبانا حمراء كبيرة على صدورهم، تماما كما فعل فرسان القديس يوحنا حين هاجموا سكان طرابلس في القرن السادس عشر.

صورة المسيحية الهلينستية "العقلانية"، التي لا تمارس العنف والتي تقابل بالإسلام العنيف غير العقلاني، مركزية في محاضرة بنديكت السادس عشر. إن هذه الصورة عن الذات إنما تفترض بشكل مدهش تفوقا أخلاقيا، وتتغاضى عن حقائق تاريخية موجعة كثيرة.

يضيف بنديكت السادس عشر:

"القضية الحاسمة في هذه الحجة ضد الإرغام على الإيمان باستخدام العنف هي التالية: عدم التصرف وفق مملیات العقل مسلك يناقض طبيعة الله. وكما

يلاحظ المحرر، البروفيسور خوري: عند الإمبراطور، كونه بيزنطيا تربى في كنف الفلسفة الإغريقية، هذا قضية بينة بذاتها. أما في تعاليم الإسلام فإن الله سبحانه متعال علوا مطلقا. إرادته ليست مقيدة بأي شيء آخر بما فيها قيود العقل نفسه. هنا يقتبس خوري من عمل العالم الإسلامي الفرنسي الشهير ر. أرنالديز، الذي ذكر أن ابن حزم (الأندلسي) ذهب إلى حد القول بأن الله ليس مقيدا حتى بكلامه، وأنه لا يلزمه شيء بتبليغ الحقيقة لنا. لو كانت مشيءة الله أن نعبد الأوثان، للزمتنا عبادتها."

قضية بنديكت السادس عشر الحاسمة: "عدم التصرف وفق مليات العقل مسلك يناقض طبيعة الله". هذه قضية غاية في التركيب، وهي قابلة للعديد من التأويلات. المدهش هو يسر استخدامها في عقد تقابل باطل، ومقلق إلى حد كبير، بين مسيحية عقلانية محبة للسلام وإسلام لاعقلاني محب للعنف!

مبرر هذا اليسر أن مثل هذا التقابل شهير ومقتبس مما يمكن تسميته "بجداول التقابل" التي يركن إليها غالبا وعلى نحو يسرف في التبسيط في بعض السياقات التبشيرية والخطابية. مفاد فكرة هذه الجداول وضع المسيحية على رأس قائمة ووضع الإسلام على رأس أخرى. بعد ذلك يملأ الجدول بمثنويات من قبيل: الحب/القانون، السلام/العنف، التحرير/الاستعباد، تحرير المرأة/اضطهاد المرأة، وهكذا. إن هذه الجداول تذكرنا بجداول الإثينيين، والرومان، وحتى المثاليين الألمان (الذين أثروا في البابا البافاري) التي غالبا ما تطور بحيث تعقد مقابلة بين "المتحضرين" و"الهمج"، بين "الأوربيين" و"غير الأوربيين".

في الإسلام، تماما كما في المسيحية، المخلص الحقيقي ليس العقل البشري الحكيم، بل رحمة الله التي قدرها بمشيءته. بيد أنه يستحيل على العقل الذي وهبه الله أن يتعالى على الله. هذا مفاد مذهب ابن حزم، وهو مذهب أعيدت صياغته على نحو مشوه على أيدي المصادر التي تعلم منها بنديكت السادس عشر. إن ابن حزم يصر على حرية الله المطلقة في فعل ما يريد. غير أن ابن حزم يلحظ، مثل معظم علماء الكلام المسلمين، أن الله يختار بحرية، رحمة بخلقه، أن يسلك بشكل عقلاني متسق، الأمر الذي يمكننا من توظيف عقولنا في الامتثال لترشيده وهديه. إن ابن حزم، مثله مثل معظم علماء الكلام المسلمين، يقر أن الله لا يحده شيء، بما في ذلك العقل. غير أنه لم يزعم إطلاقا أن الله لم يلزم نفسه، بمشيءته، بهذه الإلزامات. إن القرآن يعبر صراحة عن هذا الإلزام الإلهي الذاتي حين يقول: "كتب ربكم على نفسه الرحمة".

يواصل بنديكت قائلا:

"في هذه المرحلة، فيما يتعلق بفهم الله ومن ثم فهم الممارسة الفعلية للدين، نواجه مأزقا لا مناص منه. هل الاعتقاد بأن السلوك غير العقلاني يناقض طبيعة الله مجرد فكرة إغريقية، أم أنها فكرة صحيحة دائما وبشكل أساسي؟"

مرة أخرى نجد أن أسلوب بنديكت السادس عشر في صياغة المسألة حمال أوجه. أي عقل هذا الذي نتحدث عنه؟ هل هو ملكة بشرية وظيفتها الفهم؟ إذا كان ذلك كذلك، فأي نوع من الفهم نقصد؟ من منحى آخر، هل العقل إدراك معرفي؟ هل هو عاطفي أو روحي؟ أم تراه نوعا من الفاعلية أو الفيض يحظى بأسبقية أنطولوجية، كما حسب الأفلاطونيون المحدثون؟ أي نوع من العقل والعقلانية نتحدث عنه؟

تحتاج مثل هذه الأسئلة إلى المزيد من التأملات الأكثر عمقا. على ذلك، فإن غموض وإبهام كلمة "العقل" يمكنان بشكل مثير من القفزة المدهشة التي توحد بين اليوناني والمسيحي عبر الركون إلى الاستهلال الهلينستي في إنجيل يوحنا. وعلى حد تعبير البابا:

"أعتقد أننا نستطيع أن نستشعر هنا تناغما معمقا بين ما يشكل في اليونانية أفضل معاني الكلمة والفهم الإنجيلي للإيمان بالله. معدلا أول جمل سفر التكوين، يستهل يوحنا إنجيله بقوله: "في البدء كانت الكلمة (اللوغوس)". هذه هي اللفظة نفسها التي استخدمها الأمبراطور. الله يعمل باللوغوس. اللوغوس يعني في آن واحد العقل والكلمة ـــ العقل القادر، بوصفه عقلا، على الخلق والتواصل مع الذات."

نقترب هنا من الحصول على تعريف لما يعنيه بنديكت من العقل: "العقل القادر على الخلق والتواصل مع الذات". الراهن أن هذا قريب لما يتحدث عنه يوحنا. ولكن، هل هذا هو العقل الذي يتحدث عنه فلاسفة اليونان؟ في تقديري أنه ليس كذلك. لقد كان العقل عند معظمهم أكثر ارتباطا بالتأمل الخالص (thcoria) منه بنشاط الخلق (pocsis). فضلا عن ذلك، عند معظم فلاسفة اليونان، فإن كونه كذلك هو ما يجعله حقيقة "تواصلا مع الذات". العقل عند معظمهم قدرة بشرية لتلقي هذا الكائن المتواصل مع ذاته. لذا، فإن رؤية بنديكت الموحدة الكلية، التي تؤلف بين اليوناني والمسيحي، لم تكن سوى نقلة مكنت منها كلمات ثرية ومشحونة من قبيل "اللوغوس" و"العقل".

لا ريب أن قدرا عظيما من الخطاب الوسيط يرتهن على وجه الضبط بهذا النوع من القفزات التي تستثمر الألفاظ المشتركة. المفارق أن هذا التكتيك الوسيط يستخدم لتجسير هوة تفصل بين عقل الجامعة الألمانية العقلاني غير المشبوب بأية عاطفة، ولوغوس الكنيسة الكاثولوكية!

بعد ذلك يقر بنديكت حكما هيجليا على نحو مدهش: "هكذا يقول يوحنا كلمة الإنجيل الفصل في مفهوم الله، وفي هذه المقولة تتلاحم على نحو مجهد ومضن كل خيوط الإيمان الإنجيلي في مركب يتوجها." هكذا يزعم بنديكت السادس عشر أن يوحنا قد قال "الكلمة الفصل" في المفهوم الإنجيلي لله. أيضا فإنه يقر زعما هيجليا مؤداه أن الإيمان الإنجيلي اتخذ سبيلا "مجهدا" و"مضنيا" كي يتوج في مركب يوحني.

في ضوء القرائن المتراكمة للأبحاث التاريخ_نقدية في الأناجيل، من الغريب أن يظل في الإمكان إقرار مثل هذه الأحكام الخلافية بخصوص الإيمان المسيحي، الذي يفترض أنه قطع شوطا طويلا كي يتوج في مركب يونان_مسيحي.

أيضا، فإنني على يقين من أن علماء اليهود يجدون بدورهم صعوبة في فهم الزعم الضمني بأن خيوط الإيمان التوراتية "مجهدة" و"مضنية"، وأنه لولا يوحنا ما كان لها أن تتوج في إيمان حقيقي نهائي. وفي حين يبدو التركيب والتتويج الهيجليان مثيرين عند أرباب النتائج التي تقوم بفعل التتويج، فلا ريب أنها تقلق من يمارس عليهم هذا الفعل.

بعد ذلك، مرة أخرى، ينتقل الحجاج إلى تأمل هيجلي، غير أنه هذه المرة يعرض دعاوي "أوربية" على نحو خطر تطالب بمصادرة المسيحية:

"في البدء كان اللوغوس، واللوغوس هو الله، يقول القديس بولس. التقارب بين الرسالة الإنجيلية والفكر اليوناني لم يحدث مصادفة. بالمقدور تأويل رؤية القديس بولس، الذي وجد أن الطريق إلى آسيا قد سدت، ورأي فيما يرى الرائي في المنام أن رجلا مقدونيا توسل إليه "أن يأتي إلى مقدونيا كي يساعدنا" (cf. Acts 16: 6-10)، على أنها "تجسيد" للضرورة الحتمية للتقارب بين الإيمان الإنجيلي والبحث اليوناني."

يستخدم التقابل بين آسيا ومقدونيا هنا لتبرير الزعم الغريب بوجود "ضرورة حتمية" للتقارب بين الإيمان الإنجيلي والبحث اليوناني. هكذا، فمع العقل الأوربي وليس العقل الآسيوي توحدت المسيحية مع "البحث اليوناني". إن هذه اللغة الهيجلية إنما تعاني من نزعة المركزية الأوربية التي تميز كثيرا من الفلسفات المثالية الألمانية، وهذه نزعة جد خطرة تقلل من شأن صيغ مسيحية غير يونانية وغير أوربية (كما في لاهوت أمريكا الجنوبية وأفريقيا وآسيا).

أيضا فإنها تعرض دعوى بامتلاك العقل بوجه عام، والعقل اليوناني بوجه خاص، بحيث تجعله مسيحيا خالصا. وهكذا تنكر الحقائق التاريخية في الأنساق اليهودية_الهلينستية الخالصة، (كما عند فيلون الإسكندرية)، والأنساق

الإسلامية_الهلينستية (كما عند الفارابي، أخوان الصفا، وابن سينا) بوصفها مستحيلة. وحدها المسيحية تتوحد مع اليوناني في تتويج أوربي هيجلي يوحني.

لقد شيد المسلمون، مثل المسيحيين واليهود، العديد من الأنساق الفلسفية واللاهوتية العميقة التي استهدفت التوفيق بين مزاعم العقل البشري وحقائق الوحي الإلهي. لم يكن ذكر الفلاسفة الذين أشرنا إليهم لتونا إلا على سبيل التمثيل. هكذا حاول علماء كلام المدارس المعتزلية، الأشعرية، الماتريدية، الإثنى عشرية، الإسماعيلية، الإباضية، وحتى الحنبلية التعبير عن إيمانها بأسلوب عقلاني قدر الإمكان. حتى كتب التدريس التمهيدية في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الإسلامي تبين هذا. الأعمال الجدلية والمنطقية التي أنجزها عبد الجبار، والأشعري، والباقلاني، والجويني، والغزالي، والرازي، الماتريدي، والنسفي، وابن رشد، وابن سبعين، فضلا عن آخرين، إنما تشهد على انشغال المسلمين المعمق بالعقل والعقلانية حين يتطرق الأمر إلى التفصيل في المسائل الإيمانية. حتى أكثر الحنابلة تشددا، ابن تيميه، أنجز أعمالا مهمة في الأنساق المنطقية غير الأرسطية وقال بحجج ضد_أرسطية قريبة بتلك التي قال بها سكتوس إمبيركوس.

وفي ختام فقرة طويلة، تصلح، تكون تقديما لكتاب هيجل في "فلسفة الأديان" أو "فلسفة التاريخ"، يزعم بنديكت السادس عشر أنه:

"قد حدث تقارب معمق هنا بين الإيمان والعقل، تقارب بين التنوير الحقيقي والدين. لقد تسنى لمانويل الثاني، من صميم الإيمان المسيحي، وفي الوقت نفسه من قلب الفكر اليوناني، أن يقول: "ألا تسلك وفق مليات "اللوغوس" هو أن تسلك ضد طبيعة الله."

هكذا تضفى على الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم أسبقية أوقن من أنها غريبة على أسماع الكثير من المسيحيين. إن مركب الإيمان الإنجيلي مع العقل اليوناني توهب ببساطة قيمة نهائية بوصفها تتويج عملية تنضوي تحت لوائها كل سبل التدين الأخرى عبر إخضاعها وتجاوزها.

بعد ذلك، وبألفاظ واضحة لا إبهام فيها، نعثر على الزعم الأساسي الذي يقول به بنديكت السادس عشر، والمبرر النهائي لاعتراضاته على الإسلام.

"إن التقارب الداخلي بين الإيمان الإنجيلي والبحث الفلسفي اليوناني، كان على قدر كبير من الأهمية ليس فقط من منظور تاريخ الأديان، بل وأيضا من منظور تاريخ العالم. إنه حدث مهم حتى يوم الناس هذا. وبالنظر لهذا التقارب، لا غرو أن المسيحية، رغم أصولها ورغم التطورات الحاسمة التي طرأت عليها في المشرق، اتخذت صبغتها الحاسمة تاريخيا في أوروبا. بمقدورنا أن نعبر عن هذا بطريقة عكسية: لقد قدر لها التقارب، بعد إضافة الموروث الروماني في عهد لاحق، أن يخلق أوربا، كما يظل أساس ما نستطيع أن نسميه أوربا حقيقة."

عراجين

أوراق في الثقافة الليبية

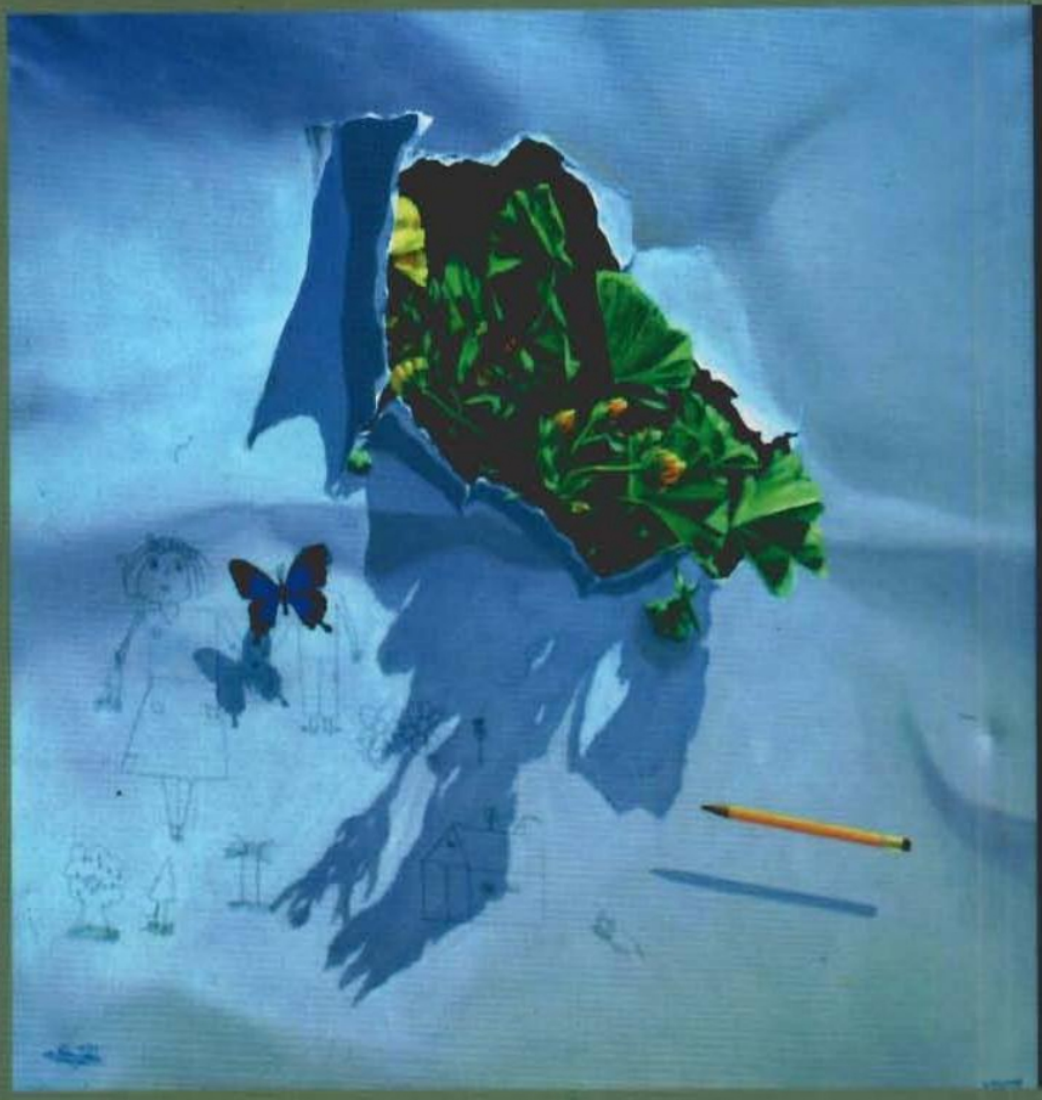

تعليق مسلم على محاضرة بندكيت السادس عشر

ليبيا من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية

سجنيات / الكراسي / غابة الرموز / يا صوتها

6

عراجين

الكتاب السادس . يناير 2007